الباب الثاني
توجهاته الثقافية

obeikandl.com

obeikandl.com

الفصل الأول

العلم بالشعر

إذا نظرنا في المرحلة المتأخرة من مراحل الأدب العربي القديم، وهي المرحلة التي سبقت الإسلام بمدة وجيزة، ثم تجاوزتها إلى نهاية العصر الأموي، وبقيت بعض ملامحها بعد ذلك، فإن ظاهرة الرواية الشفوية، تأتي في مقدمة تلك الظواهر البارزة، حتى أصبح ملحوظاً أن تجتمع الرواية والشاعرية في شخص واحد، ومن هنا كان بعض رواة الشعر شعراء، في حين احتفظ آخرون بمهنة الرواية دون أن تكون لهم الموهبة الشعرية. ولعل من أبرز أصحاب الفئة الأولى، كعب بن زهير، الذي كان راوية أبيه. وإذا لم يتبق لنا من أسماء رواة الشعر الجاهلي إلا عدد محدود جداً، ومن أبرزهم عبيد راوية الأعشى، الذي لم يكن شاعراً، فإنه عرفت أسماء رواة الشعراء المتأخرين. كما قال القاضي الجرجاني في وساطته:

«كان عبيد راوية الأعشى، ولم تسمع له كلمة تامة، كما لم يسمع لحسين راوية جرير، ومحمد بن سهل، راوية الكميت، والسائب راوية كثير»[1].

وهكذا يمكن أن يخلص المرء إلى نتيجة مؤداها أن الشاعر القديم اختص براوية معين يلازمه، ويحفظ عنه، وينقل شعره إلى الآخرين في

---

(١) ، ص ١٦.

أثناء حياته وبعد وفاته، وهي مهنة احتراف، كان الهدف منها أحياناً الإعداد ليصبح الراوية شاعراً، ولهذا كاد الراوية يكون مقتصراً كلية على شاعره.

حقاً، كان هناك من يروي شعر أكثر من شاعر واحد، من قَبِيل الرواية والإنشاد، وقد يروي الشاعر لشعراء قبيلته، أو يروي لمن يحبهم من الشعراء أو يحب أشعارهم، وقد يشارك أفراد القبيلة في رواية شعر شعرائها.

ونتيجة لاتصال العرب بغيرهم من الأمم، وإقبال أبناء الثقافات الأخرى عليهم، نشأ فن جديد، إنه فن الرواية المتعددة الأطراف، والتي لا يختص فيها الراوية بشاعر معين، بل بالشعر عامة، وكان للعصر الجاهلي ـ من واقع التأثيرات الثقافية واللغوية والتعليمية الجديدة ـ القدح المعلى، والنصيب الأوفر. وعند نقطة الالتقاء هذه، نقطة التقاء الروافد الأصيلة بالروافد الوافدة، برز حماد الراوية، لا على أنه راوية كالرواة المألوفين أو المعروفين وسط قبائلهم، بل على أنه علم لامع على مفترق الطرق، فهو لم يختص بشاعر معين، ولم يحصر نفسه في قبيلة محددة، وإنما شملت جهوده كل هؤلاء، وعم نشاطه من تطاله يداه من هذا أو ذاك من شعراء الجاهلية حتى تجاوزهم إلى شعراء صدر الإسلام فالعصر الأموي حتى أواخره. وبهذا أصبح الأنموذج والمثال، الذي تحررت على يديه الرواية الشفوية من الاحتكار والعصبية القبلية، حتى إنه كان أبعد ما يكون، بعد ما أصبحت الرواية حرفته، عن احتكار العصبية القبلية، فكان لا يعبأ حتى بشعر القبيلة التي احتضنته، لأن هذا ليس من سلوكه أو مجال تفكير، مما جعل الفرزدق يتوجه إليه قائلاً:

«أنت لا تروي أشعار قومك»[1].

يعني بني شيبان.

---

(١) البلاذري، أنساب الأشراف، جـ ٤، ص ٧١.

وإزاء هذا التفرد والتميز، ينتقل حماد من سطح الثقافة العربية ليحتل مكانته المرموقة في مصاف القمم العالية لذوي المكانة في ميدان الرواية الشفوية عند الأمم الأخرى.

يقول حماد:

«لا أنشد شعراً قديماً ولا محدثاً إلا ميزت القديم منه من الحديث»[1].

وهذا يضعنا أمام رجل ليس راوية فحسب، بل رجل يستطيع أن يميز النماذج الشعرية لغة وأسلوباً وتركيباً، فيخرج بهذا من دائرة الرواية إلى دائرة المعرفة. وسواء قبلنا أم رفضنا هذه القدرة على التمييز، أو هذا العلم الخاص، فإن الوقائع تثبت أن هذا النموذج الجديد، ليس نموذجاً مماثلاً للنموذج المعروف في ميدان الرواية الشعبية في العصور المتأخرة، حتى أوائل القرن العشرين، ممن عرفناه في الأدب العربي بقاصّ السير الشعبية أو «الحكواتي»، بل هو نموذج ذو طابع له سماته الواضحة والمتفردة.

صحيح أننا نلاحظ بعض الظواهر التي تتعرض لها الذاكرة البشرية، مما هو مشترك بين المشتغلين بهذا الفن، ولكن الحافظة التسجيلية التي كان يتمتع بها حماد، كانت ذاكرة متخصصة، وذاكرة موجهة، ثم هي لم تنشأ عن طريق التلقي المدروس، أي من جيل يسلمه إلى جيل آخر في نطاق أصحاب الحرفة الواحدة، بل كانت عن طريق التلقي المشترك، بحيث يسعى الراوية إلى تحصيل علومه عمن سبقوه بتوجه شخصي منه، ولهذا لا تكون المادة المحفوظة كلاً مشتركاً، بل مادة يتلقنها الراوية من متخصص سبقه، وهي أيضاً خاصة في طبيعتها، يعرفها أولئك الذين اهتموا بها، فحفظوها أو حافظوا عليها.

---

(١) الأغاني، جـ٦، ص ٦٩.

وفي إطار هذه الصورة للراوية العربي، وحماد بشكل خاص، يصح تعريف الراوية حسبما عرفه الصفدي بقوله:

«تقول: رويت الحديث والشعر، إذ تحملتهما من غيرك إلى آخر لم يسمع بشيء منهما؛ كأن الحديث مستوراً عند صاحبه عمن رويته له حتى تحملته أنت، فكشفته لمن سمعه منك»[1].

لقد كان الوصول إلى مرحلة الرواية التي تعتمد كلية على الذاكرة، جديراً بالنظر والتوقف حقاً، وإذا كان القدماء، قد نظروا إلى الرواية على أساس معياري التوثيق وعدم التوثيق، فإن الاتجاهات العلمية المعاصرة تثبت أن حماداً، الذي سبق هذين المعيارين، كان في حقيقة أمره منسجماً مع الملاحظات العلمية المؤكدة.

فالعمل بالرواية لا بد أن يمر بمرحلة طويلة من التدريب والمعايشة، والاستمرارية، التي تجعل صاحبها مؤهلاً لتحمل تلك المسؤولية، فالحافظة لا يمكن أن تستقر ما لم يعتمد المرء على التذكر فيأخذ القصيدة مثلاً، ويتحفظها زمناً، ثم يقوم بإنشادها حتى يستيقن من حفظها، وما لم يعتمد على المعاودة والاستمرار فإنه سيتعرض للنسيان؛ هذا إذا كان المرء يتلقى محفوظه من التدوين، أما إذا كان يتلقى محفوظه من السماع، فإنه لا بد أن يعتمد إلى الاستدعاء *recall* حين يستحضر المفردات كما وعاها سمعه وعقله، وهنا يأتي الذكاء للقيام بدور مساند في تلك العملية، ولو وضعنا في الحسبان تلك الجهود الجبارة التي كان الراوية، ذو التحصيل المتشعب يبذلها، لقَدّرنا مهمته، فحِفظ قصيدة واحدة فقط، يتطلب التكرار ثم التكرار، والاستئناس بالآخرين كي يسمعوها، وهلم جراً. وهنا لا بد أن حماداً كان قد توافر على مهمته منذ مراحل صباه؛ لأن الملاحظ أنه على الرغم من معاصرته للشعراء الأمويين، المتأخرين من أمثال الأخطل

(١) فض الختام، ص ١٥١.

والفرزدق وجرير، فإنه كان منكباً في الأساس على رواية الشعر الجاهلي؛ وذلك لأنه كان في عصر الشعراء الأمويين، قد بلغ من النضج الفكري، ما يجعل عملية الحفظ بالنسبة له عملية أكثر صعوبة، لأن الحفظ في هذه السن يتطلب جهوداً مضاعفة[١]. أما حبه للشعر القديم، فلا بد أيضاً أنه تولد من حب مواليه، الذين عاش في أحضانهم، لهذا الشعر؛ وهذه الألفة هي التي مهدت السبل له مستقبلاً للتخصص فيه. وإضافة إلى انخفاض نسبة محفوظه، المفترضة، من الشعر الأموي، فإن النتيجة الطبيعية، هي أن محفوظه من الشعر المحدث العباسي، قلَّ كثيراً، بحيث إننا لم نعثر على رواية واحدة له لهذا الشعر، حتى لأصحابه من أمثال مطيع، ولم يعن هو شخصياً بأي من هؤلاء الشعراء المحدثين، ما عدا روايته لبعض أبيات لعمار ذي كناز، التي كان حفظه لها تلقائياً لكثرة سماعها من صاحبها[٢].

وإن الكلمة الفصل في قضية حماد الراوية، أنه نشأ معتمداً على الذاكرة والإنشاد في أجواء رواية شفوية خالصة؛ أما من جاء بعده، فكانوا بين الرواية والتدوين، فكان حظه أسعد من حظوظهم، لأن المرء الذي تتاح له فرصة الإنشاد في كل محفل، يجد الفرصة لضبط علمه بالمحفوظ، كما تدل الدراسات العلمية على ذلك[٣]. وهكذا كان شعراء الجاهلية في عكاظ، وشعراء العصر الأموي في المربد.

ومن ثم يمكن التفريق بين الراوية العالم في التراث العربي القديم، والراوية من أمثال من ذكرناهم سابقاً. كما يصبح التفريق جوهرياً بين الموروث العربي، والتقاليد الشفوية الشعبية عند الأمم الأخرى، أي بين

---

(١) *Hunter, Memory, P39*.

(٢) الأغاني، جـ ٢٣، ص ٣٦٩.

وعبارته هي: «وكنت لكثرة عبثي به (أي بعمار)، قد حفظتها».

(٣) *Hunter, Memory, PP. 5 -55*.

القصيدة العربية، كما تمثلت في رواية حماد، وأنواع الشعر الأخرى مثل:

الملحمة الهومرية، والملاحم اليوغسلافية، ومقولات الدلفيك الغامضة، والمقطوعات البانياسية، والشعر الإنجليزي القديم والوسيط، وملاحم الفرنسيين والألمان في القرون الوسطى، والملاحم البابلية والحيثية، وأغاني التودا الشعائرية، ورقصات الكورغ، والأغاني القصصية الشعبية والأسبانية[1].

وإزاء هذه الصورة عن حماد، فإن المرء لا يجد نظيراً له في التراث العربي قبل هذا العصر؛ وإذا وضعنا الإمكانات العلمية والتراثية التي حظي بها الأصمعي، فإن مكانته تصبح، بعد تجريدها من المسائل الشخصية، حقيقة واقعة عن رجل تلقى الشعر مشافهة، وتنامت لديه بفضل مواهبه الفنية، وجهوده الذاتية، القدرة على تصنيف المادة الشعرية، والحكم على جاهليتها أو إسلاميتها، أو نسبتها إلى أي من الشعراء المعروفين لديه.

وتأتي الثناءات التي أسبغت عليه من الجيل اللاحق له، تأكيداً على هذا المستوى الرفيع من الرواية الشفوية، فهذا علم المدرسة البصرية الأصمعي، يقول:

«كان حماد أعلم الناس، إذا نصح»[2].

ولنترك الآن جانباً، الجزء الأخير من العبارة: «**إذا نصح**»، لنلتفت إلى صيغة التفضيل: «**أعلم**»، ولا شك أن الأصمعي يقصد هنا الأعلم بالشعر، وهذه شهادة تقدير وإشادة من رجل تتخذ كلمته مستنداً يرجع إليه عند الحكم والتقويم، فحماد يفوق غيره ممن اختص بهذا الفن علماً ومعرفة، أي إنه مدرك لبواطنه وخوافيه. ولم يقتصر تمجيد الأصمعي له

---

(١) انظر عن هذه: *Zwettler, the Oral Tradition P.5*

(٢) الأغاني، جـ ٦، ص ٦٨.

وإعلائه من ذكره، على جعله «**أعلم الناس**» دون منازع، مهما كانت درجة اتهامه: «**إذا نصح**»، بل فاق ذلك إلى أن جمع بينه وبين رأس المدرسة البصرية وعمادها الذي يرجع إليه، أبي عمرو بن العلاء، فقال رواية عن أبي عمرو نفسه:

«**ما سمع حماد الراوية حرفاً قط إلا سمعته، وكان أسن من حماد**»[1].

فهذه الموازنة غير المقصودة بين الرجلين، يضيف إلى قيمتها العلمية، تعليق الزبيدي، ناقل الرواية عن الاثنين: «**كان أسن من حماد**». والمعروف أن أبا عمرو ولد سنة ٧٠ هـ، وقد ناقشنا حقيقة ميلاد حماد، فرأينا أنه كان في تلك الحدود، وهذا يمنح حكم أبي عمرو، مصداقية أقوى، لأنه يوثقه من الناحية العلمية، كما يوثقه من الناحية الزمنية. وتأتي رواية أبي عمرو الشيباني عن أبي عمرو بن العلاء نفسه، توثيقاً آخر لذلك الخبر، يقول:

«**ما سألت أبا عمرو بن العلاء قط عن حماد الراوية، إلا قدمه على نفسه**»[2].

فهذا التقديم، وإن كان يحمل بعداً زمنياً، فإنه يحمل كذلك أبعاداً توثيقية. ولعلنا نلاحظ هذا الحصر، والقصر على السماع والتقديم في العبارات، خاصة أن هذا التقديم يجيء من رجل يقول عن نفسه:

«**ما رأيت أحداً قط أعلم مني**»[3].

وتتعاقب الإشادات بعلم حماد، أي بمعرفته بالشعر، ولا بد أن نضع

---

(١) الزبيدي، طبقات النحويين، ص ٣٧.
(٢) الأغاني، جـ ٦، ص ٧١.
(٣) الزبيدي، طبقات النحويين، ص ٣٧.

قيمة لمعنى العلم، لأن المرجعيات العلمية استخدمتها في حد ذاتها؛ ففضلاً عن قول أبي عمرو والأصمعي، نقل أبو الفرج عنه رأيَ نِدِّه المفضل فيه:

«رجل عالم بلغات العرب وأشعارها، ومذاهب الشعراء ومعانيهم»[1].

وهنا محافظة مستمرة على الناحية العلمية: «**عالم**»، فهي وإن كانت تبدو أقل من «**أعلم**»، فإنها تعني الإحاطة والشمول، فتكشف عما يقصد بالعلم بالشعر، لتوسع دائرته التي يقع فيها: «**مذاهب الشعراء ومعانيهم**»، ثم ينضم إليها، العلم «**بلغات العرب**»، وبالتأكيد، فإن هذا العلم لم يأت من طلب لمفردات اللغة من أفواه الأعراب، كما فعل كثير من العلماء، وإنما من تخصص وتبحر في مذاهب الشعراء ومعانيهم. لقد قال أبو الفرج مرة أخرى، موضحاً تلك الإحاطة وذلك الشمول:

«كان من أعلم الناس بأيام العرب وأشعارها وأنسابها ولغاتها»[2].

وهذا يمد الساحة التي يتحرك فيها حماد، لتصبح غير قاصرة على «**أعلم الناس**» بالشعر وحده ـ مع ملاحظة استعمال الجمع: «**أشعارها**»، بدلاً من المفرد ـ وإنما ليصبح الأعلم بالأيام، والأنساب، واللغات.

أما تقديره من أولئك الذين يكنون له احتراماً وتقديراً شخصياً، فإنه يمكن أن نجده في قول الهيثم بن عدي، صاحبه:

«ما رأيت رجلاً أعلم بكلام العرب من حماد»[3].

---

(١) المصدر نفسه، ص ٨٥.
(٢) الأغاني، جـ ٦، ص ٦٨.
(٣) المصدر نفسه، ص ٧٠.

وهنا تتجاوز الرواية عمن أثنى عليه «**كان**»، إلى الاتصال المباشر والمعاينة الحقيقية. «**رأيت**»، ثم نصادف صيغة التفضيل: «**أعلم**»، متفقة مع ما أجمع عليه الآخرون.

وهكذا كشفت لنا هذه الأقوال عن حقيقة غابت عن أنظار أولئك الذين اتهموه ونسوا مكانته في التراث القديم، فلقد أدرك حماد نفسه هذه المنزلة العالية التي يحتلها، فكان أن أبدى الإعجاب بنفسه، وحدد ملامح شخصيته، كما تتمثل في علميته ومرجعيته الثقافية، فكان يقول:

«**أنا أعلم الناس بالشعر**»[1].

أو.

«**أنا أعلم الناس بكلام العرب**»[2].

وهذان القولان، ليسا ادعاء أو غروراً، أو دفاعاً عن النفس، وإنما هما ـ كما وجدنا ـ حقيقة واقعة أثبتها آخرون، يعدون من الأضداد له.

ومما لا شك فيه أن بلوغ هذا المستوى من العلم في هذه الميادين المختلفة، لم يكن يسيراً في ذلك الزمان، لولا ما كان يتمتع به الرجل من ذاكرة فاقت حد المعقول، حتى استطاع أن يهضم هذا التراث المتنوع، وأن يتمثل جزئياته الفريدة؛ وإن الحقيقة العلمية هي أنه لا الذاكرة ولا الذكاء بقادرَين على الإلمام بعمق بكل هذه التنوعات الثقافية، والحصول على شهادة تفوق لا حد لها في رواية الشعر، لولا ما بذله الرجل من جهود ذاتية جبارة، جعلت من الصعب سهلاً، ومن المعوق يسيراً، يقول أبو الفرج في وصف بعض سيرته:

---

(١) الزجاجي، مجالس العلماء، ص ٢٧.
(٢) الأغاني، جـ٦، ص ٧٠.

«طلب الأدب، والشعر، وأيام الناس، ولغات العرب... فبلغ من العلم ما بلغ»[1].

فإلى جانب هذه الروافد المتعددة، هناك رافد جديد أضيف إليها، إنه الأدب. فالعلماء الأوائل، لم يكتفوا بتخصيصه في ناحية علمية واحدة، بل حاولوا أن يمنحوه أوسمة في شتى الميادين الثقافية، التي كان الحصول عليها في الزمن الذي عاشه من وظائف العرب الأقحاح رواة وعلماء.

ولعل مما يلفت النظر في مجمل هذه الأقوال، خلوها من مثل تلك الإضافة، التي أضافها الأصمعي: «**إذا نصح**»، وسوف نرى أنه حتى هذا الجزء من العبارة الأولى، هو ذو مضمون غير ما يوحي به هنا، بحيث يظل وصفه بالعالم أو الأعلم، أكبر سند توثيقي له، لأنه أسبغ عليه كل خصائص العلم من استقصاء وإحصاء، ودرس ودقة، وتمييز ومعرفة.

لقد بلغ حماد من الثقة في الذات، والاعتداد بالنفس، إلى أن يواجه الكميت (ت ١٢١ هـ)، فيتعالى عليه حتى يقول له الكميت: «أتظن أنك أعلم مني بأيام العرب وأشعارها؟ فيرد عليه حماد متفاخراً فيقول: «وما هو إلا الظن؟! هذا والله اليقين». ونتيجة لهذا الاعتداد يخرج الكميت عن طوره، فيتحدى حماداً، فيورد عليه أسئلة معجزة، يفحمه بها، ولا يستطيع لها رداً، ولعل هذه الواقعة تبين لنا أن الاتساع في الرواية كان معروفاً في عصر تألق حماد وازدهار روايته، وأنه على الرغم من اتساع روايته كان يجد من يتفوق عليه، ولم يكن هؤلاء إلا الشعراء، في بعض الحالات، من أمثال الكميت والفرزدق، اللذين جمعا بين الرواية والشاعرية، أما الرواية، فكان هو فارس ميدانها، ومالك زمام حلبتها، تقول القصة:

---

(١) المصدر نفسه، ص ٨٣.

«اجتمع الكميت بن زيد وحماد الراوية في مسجد الكوفة، فتذاكرا أشعار العرب وأيامها، فخالفه حماد في شيء ونازعه، فقال له الكميت: أتظن أنك أعلم مني بأيام العرب وأشعارها، قال: وما هو إلا الظن؟! هذا والله هو اليقين، فغضب الكميت، ثم قال له: أَلِكَمْ شاعرٍ بصير، يقال له عمرو بن فلان، تروي؟ ولكم شاعر أعور أو أعمى اسمه فلان بن عمرو تروي؟ فقال حماد قولاً لم يحفظه، فجعل الكميت، يذكر رجلاً رجلاً من صنف صنف، ويسأل حماداً هل يعرفه، فإذا قال لا، أنشده من شعره جزءاً جزءاً حتى ضجرنا، ثم قال له الكميت: فإني سائلك عن شيء من الشعر، فسأله عن قول الشاعر:

طَـرَحُـوا أَصْحَـابَهُـمْ فِـي وَرْطَـةٍ قَـذْفَـكَ المَقْلَـةَ شَطْـرَ المُعْتَـرَكْ

فلم يعلم حماد تفسيره، فسأله عن قول الآخر:

تَـدَرَّيْنَنَـا بِـالقَـوْلِ حَتَّـى كَـأَنَّمَـا تَـدَرَّيْـنَ وِلْـدَانـاً تَصِيـدُ الـرَّهَـادِنَـا

فأفحم حماد، فقال له: لقد أجلتك إلى الجمعة الأخرى، فجاء حماد، ولم يأت بتفسيرها، وسأل الكميت أن يفسرهما له، فقال: المَقلة: حصاة أو نواة من نوى المُقْل يحملها القوم معهم إذا سافروا، وتوضع في الإناء، ويصب عليها الماء حتى يغمرها، فيكون ذلك علامة يقتسمون بها الماء. والشطر: النصيب. والمعترك: الموضع الذي يختصون فيه في الماء، فيلقونها هناك عند الشر. وقوله: تَدَرَّيْنَنَا: يعني النساء، أي خَتَلْنَنا فرميننا.

والرهادن: طير بمكة كالعصافير»[1].

إن مجرد تحديه الكميت ومخالفته إياه ونزاعه، لهو مما يُعمِّق صلة

---

(١) الأغاني، جـ١٦، ص ص ٣٢٩ ـ ٣٣٠. وانظر الخبر دون تفصيل كهذا في الزجاجي، مجالس العلماء، ص ص ٢١٦ ـ ٢١٧.

حماد بالموروث الشفوي، فهو باستمرار في غربلة مادته العلمية والشعرية، وهو باستمرار يحاول استثارة ما لديه وما لدى الأخرين، وهو بتصديه لأمثال الكميت، إنما يثبت شخصيته واستقلاله، وبعد نظرته، فالكميت ليس شاعراً عادياً، إنه شاعر راوية، يعتمد على الاتصال المباشر بالموروث الشفوي، حتى إن حماداً نفسه يروي عنه قائلاً:

«كانت للكميت جدتان أدركتا الجاهلية، فكانتا تصفان له البادية وأمورها، وتخبرانه أخبار الناس في الجاهلية، فإذا شك في شعر أو خبر، عرضه عليهما، فتخبرانه عنه، فمن هناك كان علمه»[1].

فحماد يعترف أن الكميت أقرب إلى الوقائع التاريخية والمرويات الشفهية منه، لأنه ينقل من مصدر مباشر، على حين أنه يعتمد على تحصيله الشخصي من هنا وهناك. ومع كل ذلك، فإن حماداً لم يستحق لقب الراوية جزافاً، وهو لقب لم يطلق لا على المفضل، ولا على خلف، ولا على يونس، ولا على الأصمعي، ولا على ابن سلام، بل اشتهر به وحده في القرن الأول الهجري، وهو قرن فيه من أمثاله العديد من الرواة والشعراء، وهو قرن انبثاق الرواية الشفوية على يد متخصص محترف مثله، ومن هذا البعد الثقافي والتاريخي لحماد الراوية، وللرواية الشفوية على حد سواء، جاء قول ابن النحاس:

«أما حماد الراوية، فإنه كان... مشهوراً برواية الأشعار، والأخبار، وهو الذي جمع السبع الطوال»[2].

وقد سبق للوليد بن يزيد أن تحقق من ذلك حين قال له:

«بما استحققت هذا اللقب فقيل لك الراوية؟ فقال: بأني أروي لكل

---

(١) الأغاني، جـ١٦، ص ص ٣٥١ـ ٣٥٢.

(٢) انظر، ابن الأنباري، نزهة الألباء، ص ٣٥.

شاعر تعرفه يا أمير المؤمنين أو سمعت به، ثم أروي لأكثر منهم ممن أعرف أنك لم تعرفه ولم تسمع به، ثم لا أنشد شعراً قديماً ولا محدثاً إلا ميزت القديم منه من الحديث. فقال: إن هذا لعلم وأبيك كثير فكم مقدار ما تحفظ من الشعر؟ قال: كثيراً، ولكني أنشدك على كل حرف من حروف المعجم مائة قصيدة كبيرة، سوى المقطعات من شعر الجاهلية دون شعر الإسلام، قال، سأمتحنك في هذا، وأمره بالإنشاد، فأنشد حتى ضجر الوليد، ثم وكَل به من استخلفه أن يصدُقه عنه، ويستوفي عليه، فأنشده ألفين وتسعمائة قصيدة للجاهليين»[1].

وقد وقف حماد باعتداد أمام الوليد بن يزيد، ليجيبه مؤكداً سعة محفوظه من الشعر القديم؛ عندما سأله:

«أنت حماد؟».

فيجيبه:

«إن الناس يقولون ذلك!».

فيسأله الوليد مرة آخرى:

«فما مبلغ روايتك؟».

فيجيبه:

«أروي سبعمائة قصيدة أول كل واحدة منها: بانت سعاد».

ويندهش الخليفة من هذا القدر من المحفوظ، فيقول:

«إنها لَرواية!»[2].

---

(١) الأغاني، جـ ٦، ص ص ٦٨ ـ ٦٩.

(٢) المصدر نفسه، ص ٨٧.

ولعلنا نلاحظ هنا أمرين: الأول، هو اشتهار أمره في المجتمع بحيث يصبح حديث «**الناس**»، وليس من بين هؤلاء إلا معجب به، مستغرب لهذه الملكة الأعجوبة.

والثاني، أن الخليفة نفسه أعطى شهادة تميز وتفوق وخصوصية لرواية حماد.

وإذا كنا في شك من هذا العدد، سبعمائة قصيدة كلها تبدأ ببانت سعاد، فإن الخبر الآخر، عن راوية متأخر، ربما دفعنا جميعاً إلى إعادة النظر في تقويم حماد؛ فابن الأنباري شارح المفضليات، يروي عن بُندار الأصبهاني أنه:

«**كان يحفظ سبعمائة قصيدة، أول كل قصيدة: بانت سعاد**»[1].

---

(١) القفطي إنباه الرواة، جـ ١، ص ٢٥٦.

obeikandl.com

الفصل الثاني

تضلعه في اللغة

هناك اتفاق عام بين العلماء على الربط بين علم حماد بالشعر وعلمه باللغة، فهم سبق أن قالوا عنه صراحة:

«عالم بلغات العرب».

أو.

«أعلم الناس بـ ـ لغاتها»[1].

أو هم يضمنون ذلك بعض أقوالهم عندما يثبتون أنه الأعلم بالشعر، فيثبتون معه أيضاً أنه على سعة اطلاع بلغات العرب، بل إنهم حينما ينقلون إشادته بنفسه، ولا يبطلونها، يوافقونه على هذه الإشادة، ويؤكدونها له، سواء أكان ذلك قدرته الفائقة على التمييز بين أشعار العصور المختلفة: جاهلية، وإسلامية، وأموية، أو كونه: **«أعلم الناس بكلام العرب»**. وإنه لمن الثابت أن هذا التحصيل اللغوي، بل الشعري، لم يكن تحصيلاً متأخراً، يتعرض المرء فيه للنسيان أو الاضطراب، أو الجهد المضاعف، بل إنه تحصيل لا بد أنه كان مبكراً رافق صباه ونشأته.

ثم تأتي الشواهد التي لا نعدمها في كل حالة استشهاد على عبقرية هذا الرجل، فها هو يسأل مروان بن أبي حفصة قائلاً:

---

(١) الزجاجي، مجالس العلماء، ص ص ٢٧ ـ ٢٨.

obeikandl.com

«هل تروي من أشعار العرب شيئاً؟ فيسقط مروان في يده، فينشده حماد:

سَلِ الدَّارَ مِنْ جَنْبَي حِبِرٍّ فَوَاهِبٍ إِذَا مَا رَأَى هَضْبَ القَلِيبِ المُضَيَّحُ

فيسأله عن معنى البيت، فيعجز مروان عن الجواب، فيجيبه قائلاً: **«يقال: رأى الموضع الموضع، إذا قابله»**[1].

وها هو راويته الهيثم بن عدي، يستشعر في نفسه الثقة، فيحاول أن يجرِّب نفسه مع أستاذه، فيقول له:

«ألقِ عليَّ ما شئت من الشعر، أفسره لك». فيضحك حماد، ويسأله عن معنى قول ابن مُزاحم النُّمالي.

تَخَوَّفَ السَّيْرُ مِنْهَا تَامِكاً قَرِداً كَمَا تَخَوَّفَ عُودَ النَّبْعَةِ السَّفَنُ

فيعيا الهيثم عن الجواب، كما تعايا مروان، فيجيبه حماد قائلاً:

«تخوف: تنقص، قال تعالى: ﴿أو يأخذهم على تخوف﴾، أي على تنقص»[2].

وتجدر ملاحظة دلالة السؤالين: سؤاله مروان عن رواية شيء من شعر العرب، وسؤال الهيثم له عما شاء من الشعر. فمروان الشاعر الذي يفترض أنه يروي شعراً كثيراً، هو في نظره لا يروي إلا شيئاً يسيراً، إن كان يرويه؛ أما هو، فلا يَعُد هذا الشيء اليسير مقياساً له، لأنه يروي أشعار

---

(١) الأصفهاني، الأغاني، جـ٦، ص ٧٠. حبر وواهب: جبلان لبني سليم. هضب القليب: ماء لبني قنفذ من بني سليم. المضيح: ماء لبني البكاء.

(٢) المصدر نفسه. التامك: الناقة ذات السنام الكبير.
النبعة: شجرة من أشجار الجبال، تتخذ منه القسي، جمعها نَبْع.
السفن: الفأس.
القرد: الكثير القردان، المتجمع الشعر.
والبيت منسوب في اللسان «سفن» إلى ذي الرمة، وهو ليس موجوداً في ديوانه.

العرب، والهيثم الذي يعرف أستاذه حق المعرفة، يعترف ضمنياً أنه على علم بذلك الشعر.

وتمضي الشواهد قدماً، لنرى راوية أعرابياً، هو أبو حنش، يسأله عن تفسير: «أرغلته» في بيت أبي ذؤيب:

أَكَلَ الحَمِيمَ وَطَاوَعَتْهُ سَمْحَجٌ مِثْلُ القَنَاةِ وَأَرْغَلَتْهُ الأَمْرُعُ

فيقول له: «طابت عيشه، وأخصبته، وعيش أرغل: واسع»[1].

وها هو يفسر: «فتر»، في قول ابن مقبل يصف سحاباً:

تَأَمَّلْ خَلِيلِي هَلْ تَرَى ضَوْءَ بَارِقٍ يَمَانٍ مَرَتْهُ الرِّيحُ نَجْدٍ فَفَتَّرَا

فيقول: «فتر، أي أقام وسكن»[2].

وهو تفسير قريب من تفسير الأصمعي الذي قال:

«فتر: مطر، وفرغ ماؤه، وكف وتحير»[3].

ولعل من الملاحظ أن هذه التفسيرات، في كل حالاتها، سواء أكانت مع تلميذ أم عالم، هي تفسيرات محددة المعنى والإصابة للدلالة، لا تتعدى معنى الكلمة الحرفي إلى المجاز، أو ما وراء الخيال، وإنما تهدف إلى التوضيح والإبانة بدقة متناهية؛ وهذه الدقة، وهذا التحديد، يكشفان، من طرف، عن التنظيم العقلي، والوعي الفكري اللذين يسيران روايته، أما من طرف آخر، فإنا نستشعر روح الأستاذ ماثلة في تعامله وإجاباته، وإذا ما قارنا بينه وبين الأصمعي، فإنا نلاحظ أن الأصمعي لم يكتف بالقليل من

---

(١) حمزة الأصفهاني، التنبيه على حدوث التصحيف، ص ٦٩.

(٢) التاج، «فتر». وهو مطلع قصيدة عدد أبياتها خمسون بيتاً، هو في الديوان:

تأمل خليلي هل ترى ضوء بارق يمان مرته ريح نجد ففترا

ديوان ابن مقبل، ص ص ١٢٨ ـ ١٤١.

(٣) التاج، «فتر».

الألفاظ، وإنما ذهب إلى أبعد من ذلك: «**مطر، وفرغ ماؤه، وكف وتحير**»، وهو تفسير أوفى عن معنى «**تخوف**» في بيت ابن مزاحم، وعن معنى «**أرغل**» في بيت أبي ذؤيب.

وإزاء هذه المنزلة التي ذكرها له العلماء في اللغة، فإنه من المفترض أن كماً كبيراً من تفسيراته اللغوية المشابهة فقدت، كما فقد كم كبير من معارفه الشعرية، ولكن ما ينبغي تأكيده هو أن استعمال العلماء للجمع: «لغات» أو «لغاتها»، يعني اتساع معارفه في أشعار القبائل بحيث يحرص على إدراك معاني المفردات ودلالاتها عند القبائل العربية التي اهتم برواية أشعارها. وتدل هذه الإحاطة على مقدار ما بذله الرجل في التحصيل، وعلى تأقلمه طويلاً مع المادة الشعرية التي يود توصيلها، ولنا أن نلاحظ أيضاً أنه عندما كان يروي الشعر، كان مقدِّراً لما يحمله من غموض وصعوبة في الفهم، ولذلك كان علمه باللغة مساوياً لعلمه بالشعر؛ فليس هو الذي يحفظ ترديداً دون وعي بما يحمله، بل كان يعايش المحفوظ قلباً وقالباً، وهذا هو بعض سر عبقريته وتقدمه في مجال الرواية والإنشاد، ولهذا حظي بتلك المكانة المرموقة في عصره.

الفصل الثالث
حركة التدوين
وعلاقتها بحماد

هناك جانب إيجابي في الخبر الذي حاول تشويه صورة حماد بربطه باللصوصية في مقتبل حياته، وذلك عندما جعله يعثر على كتاب فيه شعر للأنصار، ثم كانت النتيجة هي «**طلب العلم**». ويتضمن الخبر معرفته بالقراءة والكتابة، وحيث إن الخبر يجعل امتهانه اللصوصية في مقتبل شبابه، فإنه يعني أن حماداً كان متعلماً في سن صغيرة، وهو زمن قديم لا نملك تحديده في صحبته لليلى بنت عروة بن زيد الخيل.

فإذا عدنا مرة أخرى إلى مراحل حياته الأولى، أي حسبما ذُكر أنه أدرك زياد بن أبيه (ت ٥٣ هـ)، أو حسبما تذكر إحدى مخطوطات وفيات الأعيان أنه أدرك خلافة عبد الملك بن مروان (٦٥ هـ/ ٧٠٥ م)، فإن هذا يقرِّب علاقته بجمع القصائد السبع. يقول أبو الفضل طيفور (ت ١٨٠ هـ)، وهو أقدم من ذكر قصة جمع القصائد السبع:

«**عن الحرمازي أنه قال: ذكر لي غير واحد من العلماء، أن السبع القصائد التي سَبَّعَها عبد الملك بن مروان وجمعها، ولم يكن في الجاهلية من جمعها قط...**»[1].

---

(١) المنثور والمنظوم، ص ٣٩.

ولم يشر طيفور إلى حماد أو إلى علاقته بجمع القصائد السبع، وإنما أشار إليها لاحقاً ابن النحاس (ت ٣٣٨ هـ).

إن ما يهم هنا هو صلة الأخبار ببعضها بعضاً: الخبر الذي يجعل الجمع في خلافة عبد الملك، والخبر الذي جعله على يد حماد، بالخبر عن إدراكه ولاية زياد والخبر عن إدراكه خلافة عبد الملك، لأن هذه الأخبار ترتبط بخبر آخر يجعل جمع المعلقات على يد معاوية بن أبي سفيان، ومن ثم يمكن افتراض جمع المعلقات على يد حماد في زمن مبكر من حياته، لعله بُعَيد وفاة عبد الملك، إذ لو تأخر عن ذلك، لما احتمل كل هذا التفاوت في التحديد الزمني، ولنُسب الجمع إلى غيره أيضاً، وإن كنا نستدل من ذلك على عبقرية الرجل وتقدمه في مضمار الثقافة العربية.

لقد جاء خبر جمع القصائد على يد معاوية على النحو التالي:

«قال الحرمازي: وقد روي أن معاوية أمر الرواة أن ينتخبوا قصائد يرويها ابنه، فاختاروا له اثنتي عشرة قصيدة»[1].

ولهذا الخبر قيمة جلى، ليس في تاريخ المعلقات، بل في طبيعة جمعها، إذ هو خبر لا يترك مجالاً للتخمين في أن معنى «**جمع**»، فيما نسب إلى عبد الملك: «**وجمعها**»، هو عين الخبر: «**أمر الرواة أن ينتخبوا قصائد يرويها ابنه**»، وإذا كان عبد الملك هناك قد «**سَبَّعَهَا**»، أي اختار من مجموع الشعر المروي سبع قصائد، ففي الخبر المنسوب إلى معاوية، أن الرواة: «**اختاروا له اثنتي عشرة قصيدة**»، فلا معاوية دَوَّن القصائد، ولا عبد الملك فعل ذلك، وإنما أمر كل واحد منهما، رواة متخصصين بجمع

---

(١) طيفور، المنثور والمنظوم، ص ٤٠.

القصائد المشهورة من أفواه الرواة، وقد استخدم ابن سلام هذه الدلالة نفسها عند حديثه عن حماد، فقال:

«**كان أول من جمع أشعار العرب وساق أحاديثها: حماد الراوية**»[1].

فحماد، لم يدوِّن المعلقات، ولا يمكن أن يكون قد فعل ذلك، وإنما كان قد وعاها في صدره، وقد دله نبوغه الفذ على الاستفادة من جهود السابقين عليه، خاصة أنها جهود قريبة العهد به، وهو في حداثة سنه، فأولى اهتمامه الرئيس لهذه القصائد السبع، ثم إنه لما يتميز به من حدة في الذكاء، وقوة في الذاكرة، ذهب يسعى، وهو يتق طريقاً غير مألوفة من قبل عند غيره، فيخرج عن المعتاد والمتعارف عليه في رواية شعر شاعر معين أو حي معين، إلى انتقاء أشعار متميزة من ذلك النوع، أو من النوع الذي يجد رغبة في حفظه، إما بدافع الذوق، وإما بدافع المصلحة.

أما عن ممارسته هو شخصياً الكتابة، فإن عدم تدوين القصائد السبع، لا يمنع أنه كان يكتب، أو يكتب بعض الشعر، وإن كنا نميل إلى أنه كان يستغني عن عناء الكتابة بسهولة إيداع الشعر في ذاكرته، حتى إن عبارة مثل: «**أكتبني**» التي نصادفها فيما سيأتي، كان الهدف منها هو الرواية، فمن ذلك أنه سأل الفرزدق قائلاً:

«**أكتبني بعض شعرك!**»، فقال له الفرزدق: «**أتريد أن تكتب...؟**»[1]. وفي طلب مماثل يقول للكميت:

«**أكتبني شعرك!**»[2].

---

(١) طبقات، ص ٤٠.

(٢) البلاذري، أنساب الأشراف، جـ ٤، ص ٧١.

(٣) المرزباني، الموشح، ص ١٧٨.

وفي الخبر الذي أورده أبو الفرج عن إرسال الوليد بن يزيد إلى حماد يستقدمه، ما يثبت معرفته القراءة، يقول حماد:

«أرسل الوليد بن يزيد إليَّ... ، فقلت: لا يسألني إلا عن طرفيه: قريش وثقيف، فنظرت في كتابَي قريش وثقيف، فلما قدمت عليه، سألني عن أشعار بَلي»[٣].

بقي هل ترك حماد كتاباً؟ إذ إن ابن النديم يقول:

«لم نر لحماد كتاباً، وإنما روى عنه الناس، وصنفت الكتب بعده»[٢]. بل إنه يؤكد أنه راوية فقط، فيقول:

«كان راوية للأخبار والأشعار والأنساب»[٣].

وهكذا كان حماد، معروفاً بـ«**الراوية**»، حتى إنه نفسه كان قد اتخذ له راوية يروي عنه فـ«**الهيثم بن عدي كان صاحبه**، وراويته، وأعلم الناس به»[٤]. أما ما يُرَشح لمعنى سؤاله الفرزدق والكميت أن يكتب شعرهما، بمعنى يرويه، فهو أنه يقول في مناسبة أخرى في لقائه بالفرزدق: «فَأَنْشَدَني»[٥]. غير أنه في مقابل ذلك، توجد إشارات تغاير هذا الرأي، فثعلب يقول في شرحه لشعر زهير عن قصيدة له:

«لم يروها المفضل من كتاب حماد، وقرئت على أبي عمرو»[٦].

---

(١) الأغاني، جـ٦، ص ٨٩.

(٢) الفهرست، ص ١٠٤. وفي مخطوطة أخرى: «ولم ير لحماد كتاباً»، وهذا أعمق تأكيداً على عدم تركه كتاباً.

(٣) المصدر نفسه.

(٤) الأغاني، جـ٦، ص ٦٨.

(٥) المصدر نفسه، جـ٨، ص ٣٥.

(٦) ص ٢٢٩.

ويقول هشام بن محمد الكلبي عن أبيات لعامر بن الطفيل:

«أصبتها في كتاب حماد الراوية»[1].

وينبني على هذا اتجاهان: الاتجاه الأول، أن العلماء الأوائل: هشام ابن محمد الكلبي (ت ٢٠٦ هـ)، وأبا عمرو الشيباني (ت ٢١٣ هـ)، كانا قد رأيا كتاباً لحماد. أما الاتجاه الثاني، فهو أن ابن النديم، لم تصل إليه نسخة من ذلك الكتاب، الذي فُقِد قبل هذا، لأن أبا العباس ثعلب (ت ٢٩١ هـ)، لم يشر إلى أنه اطلع عليه، مع أنه اعتمد في روايته شعر زهير على مروياته إلى جانب مرويات غيره.

وتشير كل الدلائل إلى أنه حقاً ترك كتاباً، إلا أن ذلك الكتاب لم يكن من تدوينه شخصياً، وإنما كان إملاءات أملاها على تلاميذه وطالبي العلم على يديه، فكان يقعد للطلاب، ويملي من محفوظه وذاكرته، وتبين الروايات التالية هذه الحقيقة، فيونس بن حبيب (ت ١٨٢ هـ)، يقول:

«يا عجباً للناس، كيف يكتبون عن حماد»[2].

وهذا القول يثبت أن جمعاً غفيراً من الناس كانوا يرتادون حلقته، فيستمعون إليه، ويدونون مسموعاتهم منه في شوق وتلهف، مما أثار عجب يونس لهذا الإقبال عليه، وقد كان حماد نفسه يحرص في هذه المرحلة من حياته على التدوين، حتى إنه يأمر الحضور لديه أن يكتبوا قصيدة مختلفاً عليها، لطرفة، فيقول:

«اكتبوها»[3].

---

(١) ابن الأنباري، شرح المفضليات، ص ٣٣.
(٢) الجاحظ، رسائل الجاحظ، «كتاب البغال»، ص ٢٢٦.
(٣) أبو الطيب اللغوي، مراتب النحويين، ص ٧٢.

وفي مناسبة أخرى أمر أحد تلامذته أن يكتب نادرة استلطفها، فيقول:

«اكتب هذا الخبر عن الشيخ»[1].

وعلى هذا، فإن الأدلة تشير إلى أنه ترك كتاباً من إملاءاته بين يدي تلاميذه، وقد كان هذا الكتاب موجوداً حتى منتصف القرن الثالث الهجري؛ لأن أبا حاتم السجستاني (ت ٢٥٥ هـ)، نص على بعض زياداته، ثم إن هذا الكتاب فُقِد فيما فُقِد من كتب التراث، فلما جاء ابن النديم، لم يجد نسخة من هذا الكتاب، ولعل قوله: **«ثم صنفت الكتب بعده»**، ما يشير إلى هذه الناحية في حماد، أي إنه لم يكتب كتاباً بيده، وإنما كتبه غيره، خاصة أن له تلميذاً راوية مشهوراً، هو الهيثم بن عدي (١٣٠ هـ/ ٧٤٧ م ـ ٢٠٧ هـ/ ٨٢٢ م) كما مر. ولقد كان هذا دأب كثير من العلماء، فالمفضليات على شهرتها، لم تجمع في عهد صاحبها، وإنما جمعها ابن الأنباري بعد زمن من وفاة المفضل[2]. ولعل ابن النديم عندما قال: **«لم نر لحماد كتاباً...»** ثم عقب على هذا بقوله: **«وإنما صنفت الكتب بعده»**، كان دقيقاً في استعماله للعبارات، فالعبارة الأولى تعني أنه لم يجد كتاباً كتبه حماد بنفسه، والعبارة الثانية تعني أن ما نسب إليه، فحمل اسمه، لم يكن من صنعه، وإنما من صنيع من جاء بعده. ولو كان الكتاب موجوداً في القرن الرابع الهجري، لَنَقل منه ابن الأنباري (ت ٣٢٨ هـ)، قبل ابن النديم (ت ٣٨٥ هـ)، بدلاً من أن يعتمد مرويات هشام ابن الكلبي، الذي كان قد نقل من ذلك الكتاب رواية مخالفة لروايته في أبيات عامر بن الطفيل.

وسواء أكانت الأبيات التي تنسب تارة إلى ابن كناسة، أبي يحيىٰ

---

(١) الأغاني، جـ ٦، ص ٧٩.

(٢) انظر، الأسد، مصادر، ص ص ٥٧٣ ـ ٥٧٤.

محمد، عبد الأعلى بن عبد الله بن خليفة بن نَضلة بن أُنَيف، أو إلى رجل من بني أسد، في رثاء حماد أم في رثاء غيره، فإنها تكشف عن هذا الجانب من شخصيته، آلا وهو التوجه نحو العلم، خاصة في تعبيره: «**يفنى العلم فيه ويدرس الأثر**»، يقول:

لَوْ كَانَ يُنْجِي مِنَ الرَّدَى حَذَرٌ ... نَجَّاكَ مِمَّا أَصَابَكَ الحَذَرُ
يَرْحَمُكَ اَللَّهُ مِنْ أَخِي ثِقَةٍ ... لَمْ يَكُ فِي صَفْوِ وُدِّهِ كَدَرُ
فَهٰكَذَا يَفْسَدُ الزَّمَانُ وَيَفْـ ... ـنَى العِلْمُ فِيهِ وَيَدرُسُ الأَثَرُ[1]

---

(١) ابن خلكان، وفيات الأعيان، جـ ٢، ص ٢١٠.
وقال الجاحظ، البيان والتبيين، جـ ١، ص ٢٥٧.
«وقال بعض الشعراء في بعض العلماء». وربما ترجحت رواية الأبيات في حماد حسب معنى الجاحظ «في بعض العلماء»، إذا أخذنا برواية ابن النديم: الذي أورد الأبيات وقال: «رثاه محمد بن كنارسة»، ص ١٠٤، وفي المرزوقي، الحماسة، جـ ٣، ص ص ١٠٥٧ ـ ١٠٥٨، قبل البيت الأول:
أَبْعَدْتَ مِنْ يَوْمِكَ الفِرَارَ فَمَا ... جَاوَزْتَ حَيْثُ انْتَهَى بِكَ القَدَرُ
ونسب الأبيات إلى «رجل من بني أسد» يرثي أخاه.

obeikandl.com